نفسه من عام ١٥٧٢ جرت في باريس مذبحة بارتلمي في الوقت الذي قرر فيه إيڤان أن يبدل من سلوكه . وكانوا يفسرون بربرية إيڤان بأنها قوة خطرة في الطباع أكثر من أنها أعمال غير إنسانية . وارتأى كثير من النبلاء البولونيين والليتوانيين أن ملكاً أضعف من إيڤان وأكثر مرونة قد يلائمهم أكثر منه ، إضافة الى أنه لم يكن يوجد بينهم من يتمنى تسلل الأوبريتشينا الى بلده . فتعسف هذه القوة المسلحة الكبيرة كان يلطخ حكم القيصر بأكثر مما كانت تفعل أعمال عنفه الشخصية .

ويمكننا أن نتصور إذا اختفت الأوبريتشينا مدى المتعة التي ستحس بها روسيا باستثناء الأوبريتشينا نفسها بطبيعة الحال . وقد خفضت مكانة الأوبريتشينا بالفعل وأضاعت سلطتها وممتلكاتها لأن القيصر استطاع أن يقوم بهذه الحركة باعتماده على فوروتنسكي وجيشه الظافر ، ولولا هذا الشعور الجديد بالأمان لما تمكن من أن يفعل ذلك . على أن ما فعله اظهر عظمة هيمنته وسلطان إرادته الذي ليس عليه رقيب . ولقد يكون ثمة الكثيرون من الناس الذين دهشوا من مفاسد إيڤان ، ولكنهم كانوا يخافونه اكثر مما حدث لأي عاهل غيره . وقد نكون مخطئين إذا اعتبرناه مجرد مجنون يترنح بين رذيلة واخرى ، ففي عام ١٥٧٢ في موسكو كان العاهل الأعلى المطلق الظريف المليء بالوعي لعلاقته مع « الإله ذي الأقانيم الثلاثة ، الواحد غير المرئي ، الأب والابن والروح القدس » ، ذلك الشعار الذي كان يستعمله في صدر فرماناته .

وهكذا انحلت الأوبريتشينا واستعادت الزيمشينا مكانتها التي كانت الأولى قد انتزعتها منها . وتمت معاقبة بيزي Daisi رئيس دير سلوفتسك الذي كان قد شهد زوراً على المتروپوليت فيليب . ونفي من البلاط كثير من الأشخاص المكروهين الذين بقوا مقربين من القيصر حتى الآن . وبدأ بوريس غودونوف يجد حظوة في عيني إيڤان . وغودونوف هذا هو قريب بعيد للقيصر ، كان طموحاً كما كان أول رجل له قيمته قربه القيصر اليه بعد الكسي اردااتشيف ، وربما كان إلغاء الأوبريتشينا من وحيه وصنع يديه . وعلى الرغم من أن بوريس غودونوف الفتي